

الأبعاد النفسية للوحة الموريسكية

لعل

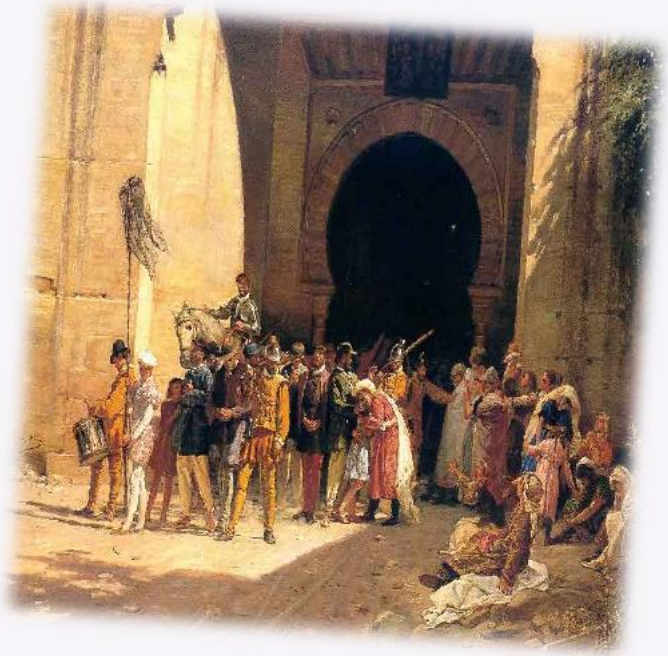
كثيراً من قضايا التاريخ لا يمكن أن تكون مجرد أوراق تسطرها أقلام ، وكتب تحوى هذه الأوراق لمجرد القراءة والاطلاع ، بل هناك من قضايا التاريخ ما تستحق أن تأخذ حيزاً من الوجود والدراسة وهدفاً للوصول إلى الحقيقة التاريخية بجميع صورها ، ومن هذه القضايا التاريخية المهمة "القضية الموريسكية" التي أصبحت مجال جدال واهتمام في وقت واحد ، وفي هذه الأوراق التالية سوف يتعرض المقال لجانب من جوانب هذه القضية ألا وهو الجانب السيكولوجي "النفسي" ، في معنى يتبلور حول نقطة محددة وهى هل كان الموريسكيون عنصراً مقبولاً لدى الأسبان ، أم كانوا أشخاصاً يتبلور فيهم نظرية عدم قبول الآخر بكل معطياتها؟

"لا تبكي يا أماء ..، إنا ذاهبون إلى الجنة ...، إن أرضي غرناطة لن تضيق عن لحد طفل مات في سبيل الله ...، إن ازهار غرناطة لن تمنع عطرها قبراً لم يتمتع صاحبها بعطر الحياة .."^(١) هذا آخر ما أنشده أطفال غرناطة عند سقوطها في عام ١٤٩٢م وهى درة الوجود العربي في الأندلس ، وللتوضيح عن ماهية الدراسة يجب التعريف بالموريسكيين.

الموريسكيون: لفظ يرادف المسلمين الذين أُجبروا على التنصر في أوائل القرن السادس عشر الميلادي في ممالك اسبانيا "قشتالة" ، واراغون ، ونابارا" وتعنى "المسلمين الصغار" وهو ما أطلقه الأسبان عليهم تحقيراً لهم^(٢).

بعد سقوط غرناطة دخل المسلمون في حقبة تاريخية جديدة تحت زعامة الملكين الكاثوليكيين إيزابيلا (ت ١٥٠٤م) ، وفرناندو الخامس (ت ١٥١٦م) ، وفي إشارة منها في بداية الحكم أوصيا إلى الحاكم الجديد بحسن معاملة المسلمين الذين أحسوا بالاطمئنان لهذه التوصية ولكن هيهات ذلك ، فقد كان الملكان يتصنعان ذلك إلى حين إبداء الرأي النهائي في أمر المسلمين ، فلم يمر الوقت كثيراً حتى قرر الملكان قرارهم الأبدى ألا وهو تنصير المسلمين وذلك تحت إلحاح من الأحرار إلى الملكين بذلك في خطوة لمحو آثار التاريخ الإسلامي في ظل الدولة الأسبانية الجديدة^(٣) ، وبدأت محنة المسلمين ضد العنف الأسباني الذي يهدف إلى تحقيق أهدافه بجميع الوسائل حتى أدى ذلك في النهاية إلى قيام المسلمين بثورتهم الأولى في عام ١٤٩٩م التي استمرت إلى عام ١٥٠١م بسبب استمرار كل من إيزابيلا وفرناندو في سياستهما التعصبية وبدأت محنة المسلمين تأخذ في التبلور^(٤).

قامت الثورة الأندلسية "الموريسكية" الأولى بسبب السياسة التي أدخلها الكاردينال الجديد لغرناطة "خمنيس" الذي أخرج من جعبته كافة السبل لتنصير المسلمين بعدما أعطت له الملكة جميع الصلاحيات الكاملة لذلك ، ويمكن القول: إن محنة المسلمين بدأت في التعقل للخطر الجديد وقامت بثورتها للحفاظ على وجودها القديم في البلاد ، تلك الثورة التي خرجت من حي البيازين أحد أحياء غرناطة في ١٤٩٩م والتصدي لأفعال الكاردينال العنصرية^(٥). وقد أكد المقرري هذه الأحداث عندما قال: "ثم إن النصارى نكثوا العهد ونقضوا الشروط عروة عروة إلى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر"^(٦) وانتشرت الثورة في كل أنحاء غرناطة ، فأرسلت الملكة إيزابيلا أول جيش لإخضاع الثورة فلم يفلح في إخضاعها حيث أخذت الثورة شكل الموجه التي تتوالى في الأحياء المجاورة لحي البيازين ، مما دفع الملك فرناندو إلى إسناد المهمة إلى القائد الأسباني الشهير "الونزو دى



عمر بكر محمد قطب

معيد بقسم التاريخ "شعبة التاريخ الإسلامي"

كلية الآداب — جامعة المنيا

محافظة المنيا — جمهورية مصر العربية

omar.bakr10@yahoo.com

الاستشهاد المرجعي بالهقال:

عمر بكر محمد قطب ، الأبعاد النفسية للوحة الموريسكية - دورية كان التاريخية - العدد التاسع ؛ سبتمبر ٢٠١٠ ص ١٦ - ١٨.

(www.historicalkan.co.nr)



سار الحزب الأسباني في سياسته العنصرية يهاجم الثوار المورييسكيين في كل أرجاء الثورة وبقاعها حيث كان الشغل الأكبر للدون خوان المتزعم للحزب هو ضرورة التخلص من زعماء الثورة بشتى الطرق ، سواء باللين أم بالعنف ، ولم يكتب له الفشل حيث استطاع عن طريق الدس والخديعة أن يتخلص من القائد المورييسكى "محمد ابن أمية " ، وأكمل المورييسكيون ثورتهم مدافعين عن وجودهم ، وعقيدتهم ، وتاريخهم ، وحياتهم في الأندلس ، وبالرغم من نجاحهم الكبير في أحداث الثورة إلا أن هذه النجاحات قوبلت بجانب كبير من الشدة والحزم من جانب الحزب الاسباني الذي استطاع القضاء على الثورة مع مطلع عام ١٥٧١م ، وما يدل على قوة هذه الثورة وشدتها هي النتائج التي أدت إليها هذه الثورة ، وتجلّى أعظم هذه النتائج في قرار الملك فيليب الثالث الذي خلف أباه في الحكم في عام ١٥٩٨م بنفي المورييسكيين من البلاد بشكل تام وجذري وضرورة طرد العنصر المورييسكى من البلاد واستئصال شافته ، ذلك القرار الذي نفذ بحذافيره منذ صدوره في عام ١٦١٠م.^(١٤)

هذه هي سطور المحنة المورييسكية في أسبانيا في القرن السادس عشر الميلادي / التاسع الهجري ، وفي تحليل أسباب هذه المحنة من الناحية النفسية وماهيتها يمكن الخروج بالتالي:

(١) إن الناحية النفسية التي دفعت المورييسكيين إلى القيام بثوراتهم ضد الأسبان تكمن في أساليب الأسبان تجاه العنصر المورييسكى بدافع اسباني يتمحور في الحقد النفسي على المورييسكيين الذين اشتهروا بالتفوق في جميع مجالات الحياة الأسبانية ، بجانب كثرة نسلهم ، وزواج بعض الأسبان أنفسهم من مورييسكيات ، وذلك كله أثار حفيظة الأسبان وجعل إحساسهم بقيمة العنصر المورييسكى وقدرته يعلو ، ويدفعهم إلى ضرورة التخلص من هذا العنصر بأية وسيلة كانت .

(٢) إن الصدام والتعارض بين الاعتبارين كان أساس الصراع بين الطرفين ، فقد أعتبر النصارى عنصر مؤمن ولكن يفتقد إلى قيمة العمل من وجهة النظر الأسبانية ، وقد اعتبرت وجهة النظر هذه المورييسكيين عنصراً شيطانياً متفاعلاً متكاملًا ولكنه يفتقد إلى ثوب الإيمان الذي أراد الأسبان إلحاقه بهم ، لذلك فشل التنسيق بين الطرفين وأصبح التصادم والعنف بينهما شيئاً حتمياً لا شك فيه .

(٣) أما من وجهة النظر الإسلامية فقد اعتبر المورييسكيون أنفسهم مسيحيين في الظاهر ، ومسلمين في الباطن ، وأن ما دفعهم إلى التظاهر بالمسيحية هو محاولة الحياة في أرضهم التي ولدوا فيها ، ولا يستطيعون التفریط في هذا التاريخ بالشئ اليسير ، هذا التباين في الاعتبار عند كل من الأسبان والمورييسكيين كان سبب هذا الصراع الكبير الذي استمر فيها يزيد عن القرن من الزمان .

اغويلار " في محاولة لصد الثورة والقضاء عليها ، ولكن لقي هذا القائد مصيره حتفاً على يد أحد الفرسان المسلمين وهو "الفهري الاصطبار" بعد مبارزة بين الطرفين انتهت لصالح الأخير ، الأمر الذي أزعج الملك وجعله يقود حملة القضاء على الثورة بنفسه متخذاً كل الإجراءات التي تساعد في تحقيق هدفه المنشود.^(٧) وقد كان مقتل القائد اغويلار من أكثر الدوافع التي حركت الملك حيث كان يعتبره فارس اسبانيا الأول واعتبره الأسبان عامة من النصارى شهيد المسيحية في اسبانيا^(٨) ، وقد جاءت نهاية الثورة على يد الملك فرنا ندو الذي صحبه حوالي ٨٠ ألف من الرجال للقضاء على الثورة ، وبرغم الخسارة التي تعرض لها الملك إلا أنه استطاع محاصرة الثوار في أماكن ثوراتهم مثل "اندرش ، ولاخارون ، وحدود المربة" ولم يدخل عام ١٥٠١م إلا وكانت الثورة منتهية وعاد الملك ليجد الملكة قد جهزت قراراً آخرأ يخير المسلمين بين التنصر والخروج من البلاد.^(٩) ومع هذا المرسوم من الملكة هاجر من الأندلس من المسلمين حوالي ٣٠٠ ألف انتشروا في المغرب وبلاد الشام ومصر ، وتقبل الآخرون التنصر ولكن كان ذلك في الظاهر من جانبهم بهدف البقاء في موطنهم الذي استقروا فيه من زمن بعيد ، أي أن المسلمين أظهروا التنصر وأبطنوا الإسلام ، ومن تلك الفترة أطلق عليهم اسم "المورييسكيين" ذلك اللفظ الذي أطلقه الأسبان عليهم بعد إحساسهم بأنهم ليسوا نصارى خلص ، ولكنهم نصارى بموجب مرسوم الملكة إيزابيلا.^(١٠)

ومضت فترة بعد الثورة الأولى أجبر فيها المورييسكيون على التظاهر بالنصرانية وهم يبطنون الإسلام بداخلهم مروراً بعهد خليفة فرنا ندو وهو الملك كارلوس الخامس أو شار لكان "١٥١٧ - ١٥٥٥م" ، حيث كانوا ظاهرياً يعمدوا أبناءهم على يد القسيس ثم يُتبعوا ذلك بإزالة ماء التعميد النصرانية وتربية الطفل تربية إسلامية ، حتى في الزواج كان يتم عقد الإكليل ظاهرياً ثم يعودوا إلى بيوتهم ويحتفلوا بالعرس طبقاً للشريعة الإسلامية.^(١١) وقد تردد كارلوس الخامس في سياسته تجاه المورييسكيين بين الشدة واللين ، وذلك بخلاف ابنه فيليب الثاني "١٥٥٦ - ١٥٩٨م" الذي خلفه ونشبت في عهده الثورة المورييسكية الكبرى في عام ١٥٦٨م واستمرت حتى أوائل عام ١٥٧١م والتي كانت أسبابها هي أسباب الثورة الأولى ذاتها من حيث سياسة التنصير التي اتبعها الحكام الأسبان في شكل متوال ، ولكن يضاف إلى هذه الأسباب سبب قوى جداً وهو "محاكم التفتيش" التي ظهرت في اسبانيا ، وتولت منذ ظهورها في اسبانيا في عام ١٤٨٣م محاربة جميع المذاهب ، والأديان المتناقضة مع المسيحية الكاثوليكية بدءاً من اليهود الذين لقوا منها أنواعاً كثيرة من العذاب حتى كان مصير المورييسكيين على يديها ، وقد ذاق المورييسكيون من جراء هذه المحاكم صنوف الألوان من التعذيب التي تتنافى مع تعاليم الإنسانية كلها ، مما أدى إلى حتمية نشوب الثورة الكبرى التي اشتعلت بقوة مع بدايات عام ١٥٦٨م.^(١٢) وقد تزعمها عدد من المورييسكيين الأقوياء الشجعان بداية من الصباغ "فرج بن فرج" مروراً بـ "محمد بن أمية" وانتهاء بـ "مولاي عبد الله" ، وكان لكل منهم دور بارز في التصدي للحزب الاسباني الذي تمثل في رجاله ومنهم "المركز موتخار" الحاكم العسكري العام لغرناطة و"الدون خوان" اخو الملك فيليب الثاني غير الشرعي ، وقد كانت هذه الثورة ذات أثر كبير في مستقبل المورييسكيين بعد ذلك في اسبانيا.^(١٣)



إن ما يمكن قوله هنا: إن المحنة الموريسكية كانت خطراً على الأسبان من ناحيتين، أحدهما في الأشخاص ألا وهم المسلمون ذاتهم ومعارضتهم للسياسة الأسبانية، ولذا فقد قاوم الأسبان هذه الناحية من خلال الاضطهاد المستمر لهذا العنصر المتمزمت ضد سياستهم في واحدة من أكبر أمثلة نظرية عدم قبول الآخر، ومن الناحية الأخرى، رأى الأسبان في الإسلام ذاته وما يحمله من مفاهيم وتعاليم خطراً على الكاثوليكية الأسبانية بشكل كبير يجب أن يواجه بعملية تطهير عرقي كامل لمن يحمل هذا الدين داخل اسبانيا، فتجلت المحنة الموريسكية في نظريتين توالتا تاريخياً، أولهما نظرية عدم قبول الآخر والأخرى نظرية ضرورة التطهير العرقي لهذا الآخر.

الهوامش

- (١) على الطنطاوي: "قصص من التاريخ"، دار المنارة للنشر، ط ٦، ١٤١٧-١٩٩٦، ص ٢٦١.
- (٢) ميكيل دي إيبالنا: "الموريسكيون في اسبانيا وفي المنفى"، ترجمة: جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٦، ص ٢٤٤.
- (٣) محمد عبد الله عنان: "نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين"، الهيئة المصرية للكتاب، ٢٠٠١، ص ٣٠٨.
- (٤) عادل سعيد بشتاوي: "الأندلسيون المواركة"، ص ١٢٤.
- (٥) نفس المرجع، ص ١١٤.
- (٦) المقري: "شهاب الدين أحمد المقري التلمساني ت ١٠٤١هـ"، "نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب"، تحقيق: إحسان عباس، ج ٤، دار صادر للطبع والنشر، بيروت، ١٩٦٨، ص ٥٢٧.
- (٧) اسعد حومد "محنة العرب في الأندلس"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ٢، ص ٢٧٠.
- (٨) واشنطن ايرفنج: "أخبار سقوط غرناطة"، ترجمة: هاني يحيى نصري، دار الانتشار العربي للنشر، ص ٣٥٨.
- (٩) اسعد حومد: المرجع السابق، ص ٢٧٧.
- (١٠) عادل سعيد بشتاوي: الأندلسيون المواركة، ص ١١٨.
- (١١) شكيب ارسلان: "خلاصة تاريخ الأندلس إلى سقوط غرناطة"، مطبعة المنار، مصر، ١٩٢٥ م - ١٣٤٣ هـ، ص ٣٥٢.
- (١٢) محمد علي قطب: "مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس"، ص ٧٨.
- (١٣) عادل سعيد بشتاوي: الأندلسيون المواركة، ص ١٥٣.
- (١٤) محمد عبد الله عنان: "نهاية الأندلس"، ص ٣٩٥.

(٤) وإذا ما تطرق المقال إلى الناحية النفسية الأسبانية فإنها تتجلى في أفعال الحكام الأسبان ومواقفهم ضد الموريسكيين، فقد وقع الملكان الكاثوليكيان إيزابيلا وفرنا ندو تحت سيطرة الأبحار، وخضعوا لرغبتهم في نفس الوقت الذي اشعر الأبحار الملكين بأنهما حماة المسيحية والكاثوليكية في اسبانيا، بل في أوروبا من الإسلام، وأن على حامى المسيحية الدفاع عن مسيحيتهم، والقضاء على العناصر المعادية إلى هذا المعتقد وإلى هذه الديانة بجميع أشكال العنف، مما دفع الملكين في توجيه سياستهم إلى القضاء على الوجود الإسلامي ليشعرا بقيمتهم بعدهما ملكي اسبانيا الجدد، حتى إن الأبحار وضعوا لهما نظرية تقول "إذا أردت أن تكون ملكاً صالحاً يجب أن تكون كاثوليكياً صالحاً"، وهكذا ربط الملكان وجودهما - باعتبارهما ملكي اسبانيا - بعدم وجود المسلمين.

(٥) أما بالنسبة للملك كارلوس الخامس، فتردده في السياسة التي يتبعها تجاه الموريسكيين بين الشدة واللين يشرح - بالدرجة الأولى - الدوافع النفسية والشخصية لهذا الملك، ففي الوقت الذي يصدر فيه قراراً بمنع التخاطب باللغة العربية من جانب الموريسكيين... يسمح لهم بالتخاطب مقابل ضريبة من المال يدفعونها له، ومن ثم فإن تحليل هذه الأفعال الكارلوسية تفسر مدى تناقض هذه الشخصية من جانب، ومدى عدم اقتناع الملك في قرارة نفسه بأن الموريسكيين عدو يجب التخلص منه من جانب آخر، بل أنه تقبلهم كثيراً وأصدر قرارات لم يستعمل الشدة والقسوة في تنفيذها ضدهم.

(٦) أما حكم كل من الملكين فيليب الثاني وابنه فيليب الثالث، فقد تجلى الجانب النفسي بشكل كبير في أفعالهما ضد الموريسكيين، ففي نفس الوقت التي اشتعلت فيه الثورة الموريسكية الكبرى في اسبانيا كانت الحركة البروتستانتية تظهر وبقوة في أوروبا، وتهدد الوجود الكاثوليكي في اسبانيا وأوروبا، ومع فشل الملكين في تقويض هذه الحركة الجديدة، وعدم التصدي لها في حركتها السريعة، استعاضا هذا الفشل تجاه الموريسكيين، أي أنهما اتخذوا أفعالهما تجاه الموريسكيين شفاءً لغليل فشلهم في أوروبا والحركة البروتستانتية.

ونهاية بطرح التساؤل نفسه هل كان الصراع بين الأسبان والموريسكيين صراعاً دينياً بحتاً، أم توجهه أوجه صراع اجتماعي، ونفسي، وعقدي، وبشرى آخر؟ وهل كانت العلاقة بين الأسبان والموريسكيين علاقة تضاد بين جنسين بشريين أم تضاد بين فكريين وثقافتين؟



من أبحاث الأسناذ عمر بك:

- "فتنة خلق القرآن بين الخلافة والمعارضة".
- الاشتراك في بحث بعنوان "الثورة الجزائرية".
- "الثورات الموريسكية بعد سقوط غرناطة".